صورة الجنة في المخيال الشعبي

عقيل حبيب عبيد
بكالوريوس علم النفس

الخلاصة:

تشغل الجنة مساحة واسعة من البنى المؤسسة لهوية الجماعة العراقية ، المتأتية من الموروث المتمثل بالكم الكبير من النصوص والسرديات والتأويلات التي أفضت بمجموعها الى رسم صورة متخيلة إلى الجنة .

وسوف تتناول هذه الورقة الأبعاد التخيلية التي يراها الباحث هي الكيفية التي يتلقى فيها الفرد صورة الجنة وتمثلها في سلوكه ومخياله والتي تتركز في اللا وعي الفردي وبناء اللاوعي الجمعي .وتزعم هذه الورقة محاولة رصد المستويات والمكونات المعرفية لتشكيل صورة الجنة في المخيال الشعبي على النحو الآتي :

١. دراسة النصوص الإسلامية المتعلقة بالجنة بصورة مباشرة .
٢. النظر في بعض المرويات والسرديات في الفكر الإسلامي .
٣. رصد مدخلات التلاقح الحضاري قبل وبعد الإسلام .

١. يسعى الباحث في ورقته هذه إلى الإفادة من المدارس الفكرية والفلسفية والمناهج النقدية الحديثة ذات الأصول الغربية في فض اشتباك الأنساق المتداخلة والوصول الى بنية دلالات الصورة والتي لاحظ فيها تشكلات مفهوم الجنة على وفق أنظمة سيميائية وبالتالي فأن الورقة تسلط الضوء على احد أهم البنى المعرفية التي يتشكل منها الوعي الذي يحدد إبعاد تلك الصورة .

المبحث الاول : تحديد المفاهيم

١. الصورة

الصورة هي البؤرة الفنية الأساس التي تنطلق منها خيوط التشكيل الإبداعي وبحسب الدكتور شفيع السيد ، فان ((ابسط دلالة لكلمة الصورة وأقربها إلى الأذهان ، هو دلالتها على التجسيم، أو على الأشياء القابلة للرؤية البصرية))[١].وقد استخدمها القرآن الكريم بهذا المعنى في قوله تعالى : ((الذي خلقك فسوّاك فعدلك ، في أي صورةٍ ما شاء ركّبك))[٢]وقوله: ((الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً وصوركم فأحسن صوركم...))[٣].

والصورة في أبسط معانيها ، كما يقول سي . دي لويس ، ((رسم قوامه الكلمات المشحونة بالإحساس والعاطفة))[٤]. لذلك فهي ((اخطر أدوات الشاعر بلا منازع)) [٥]

وكعلاقةٍ تنمّ عن رؤية تعبير مرتبطةٍ بوظيفةٍ معينةٍ ووعيٍ ذي دلالاتٍ موحية كونها وسيلة لنقل فكرة الأديب وعاطفته وهي تستوعب أبعاد الخيال المدرك واللامدرك في آن[٦].

فالصورة حادثة ذهنية مرتبطة نوعيا بالإحساس، فعندئذ تكون حيويتها كامنة في الحدث الذهني فضلا عن كونها "منهجا لبيان حقائق الأشياء"[٧].

التعريف الاجرائي: الصورة هي الانطباع الذي تختزنه الذاكرة عن موجودٍ حسي ما .

٢. المخيال الشعبي

مفهوم المخيال باعتباره رؤية جامعية يكتسبها شعب من الشعوب أثناء تفاعله مع محيطه القريب والبعيد، من جهة، ومن تفاعل العناصر المكونة لهذا المحيط مع بعضها البعض، من جهة أخرى. فالمخيال هو الإطار الجماعي الذي يوجه ويحدد طبيعة مسيرة المجتمعات وحضاراتها، كما يحدد ما يُسمّى في العلوم الاجتماعية بالشخصية القاعدية (Basic Personality) مسار الفرد وسلوكه ، يعود مصطلح المخيال ((L'Imaginatire الى الثقافة الفرنسية و نكاد لا نجد له استعمالاً في العلوم الاجتماعية والإنسانية الأنجلوسكسونية،.. إذ إن مفردة المخيال تعود الى اصول فرنسية و قد ولدت على أيدي عالم التحليل النفسي الفرنسي جاك لاكان (Jacques Lacan) في خمسينيات القرن الماضي [٨].

وقد تبنى الباحث تعريف الانثربولوجيا الفرنسية لمفهوم المخيال الشعبي والتي تعرفه على انه مجموع التمثلات الأسطورية للمجتمع .

المبحث الثاني : الأطر التاريخية للنصوص والمرويات

١. ما قبل التأسيس الإسلامي

كانت أساطير الجزيرة العربية في عصر ما قبل الإسلام ، كأساطير الأمم الأخرى ، تنطوي على ظاهرة ثقافية إنسانية تتناقلها الأجيال، وظلت محافظة على قدرتها الإيحائية المنبثقة عن نظام ديني موضحة معتقده ومتماهية بطقوسه ، واستطاع عرب الجزيرة توظيف سحر الكلمات بصياغة أساطيرهم الخاصة متأثرين ومؤثرين بمن جاورهم من الأقوام لبلورة ما يمنح الفرد مبررا للوجود ويعطيه ذاكرة تاريخية تغنيه عن التاريخ الدنيوي وأفضى بهم التفكير، كغيرهم ، إلى نتيجة مفادها إن الإنسان أداة لتنفيذ خطط الأرباب .

وقد تناول الدكتور عبد الله العذري ذلك في مقدمة كتابه الموسوم "إسطورة الخلق العربية " والصادر عن دار الوراق إذ يقول في مقدمته انه قضى أكثر من ثلاثين عاما في جمع وغربلة مادة كتابه ، والبحث في بطون كتب التراث والمخيال الشعبي عن الشذرات المبعثرة في تلافيفها . ليصل من خلال ذلك إلى نتيجة مفادها (من الممكن ان تبقى الأساطير الجاهلية حية متداولة منذ طوفان نوح إلى إن جمعت في العصر الإسلامي) [٩]

لقد ارتبطت قصة خلق الجنة بالجسد وتحديدا جسد المرأة ،وتسببها المباشر بطردها وآدم من الجنة ،وتفضيلها تنفيذ خطة ابليس بواسطة تقمصه لجسد الأفعى على التزامها بوصية الرب .

ان قصة خروج آدم من الجنة تكشف عملية خلق المرأة الكونية وذلك عبر التماهي بعدد من الصور تتجه بالحركة للاسفل ،نحو الوجود الأرضي ،بحسب النظرية الكوزمولوجية ، فتتماها صورة المرأة بصورة الحية وتحمل عنها اللعنة والعقاب الأبدي لا بهدف حمله والتخلص منه بل بأنباته والتحول الى وسيط ومسكن لقوى الشر الكامنه فيه (على العكس من التصور الذي يعطيه الاهوتيين للمخلصين وهم جميعا من الرجال)ولا يتوقف المخيال الشعبي عند هذا الحد فتتداخل صورة المرآة مع الشيطان بالأستفادة من قابلية الأغواء التي يملكها الآثنين معا . لذا فان المرأة (حين تتساوى فانها تتساوى بالرجل ،وحين يسمح لها بالمشاركة فانما تشارك الرجل مركز الحركة وبؤرة الفاعلية ....وكأن كل فاعلية للمرأة في الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية فاعلية هامشية ،لاتكتسب دلالتها الا من خلال الرجل)[١٠]

وبالعودة الى قصة الهبوط من الجنة ،نلاحظ كيفية خلق المرأة (بايلوجيا) من جزء صغير (وهو الضلع) أخذ من الكيان الكلي لجسد الرجل ، وعلى الرغم من وضوحه التام في الأشارة الى تبعية الجزء – الابدية والنهائية – للكل (الرجل) ولكن هذا لا يمنع من الأفتراض ان هذا بالضبط لربما يكون هو السبب وراء قيام المرأة بمحاولة الأستقلال عن الرجل ،عن طريق كائن هو عدو او نقيض للأرادة التي كانت السبب وراء جعل عملية الخلق بهذه الطريقة .

٢. لحظة التأسيس الاسلامي

بعد ان رئينا كيف استعاد الخطاب الفردوسي أليات العقل العربي الصحراوية والذكورية، فأن ذلك الخطاب بعد السنوات الأولى لأعادة تأسيسه دينيا ، أستطاع أن يوسع من منطقة أشتغاله لتشمل أراض بكر ميثيولوجية وثقافية وأجتماعية ونفسية وأدبية وفنية تصويرية ،وبدئت تظهر الى السطح الصور والنماذج الفردوسية الأولية التي كانت مختبئة في الأعماق اللاواعية ، وبعد سنوات (الفتوحات) وما جلبته من ثراء كبير وشامل نشط تلك الصور والنماذج وحفزها على الظهور ، فقد تم تنظيم المؤثرات الجديدة وفقا للرؤى والتصورات التي كان يحملها الأنسان العربي في داخله ، وصار يهتم

بالجسد بأكساءه وأسكانه واختيار نوعية الطعام ، وظهرت مؤلفات طبية وجنسية كثيرة ممتزجة مع المؤلفات الدينية و التي ظهرت أنوع منها تهتم بالوصفات السحرية والأدعية والتعازيم التي تتخذ من الأهتمام بالذات محورا لها . كل هذه السرديات والمؤلفات وسواها كان الهدف منها هو تحصين الجسد وتزويده بطوق من الحماية وتقوية دفاعاته ضد الطبيعة والزمن و ما يضمر له الأخر أو العالم الخارجي من أخطار وحسد ومن أمراض وشرور، فمن أجل أكمال صورة المنتصر في الحرب على الأرض كان لابد من أمتلاك الجسد لقدرة أحراز الأنتصارات الجسدية .وعلى ضوء ما تقدم راح الأنسان العربي يعيد أكتشاف ذاته (المميزة) المفضلة عرقيا ، أو ما يمكن أن نسميه (ذاته السلطانية) بوصفه السيد ،الفاتح ،المنتصر . وبدأت تظهر حساسية جديدة لم يكن لها ان تظهر لولا هذا الثراء الحسي والجنسي والمادي والثقافي المتدفق ،وشهدت الشخصية العربية ما يمكن لنا أن نصفه ب (النرجسية الجديدة)وسلوكيات الترف التي كانت دائما تتجه بأنظارها نحو الفردوس ،خاصة لدى طبقة المحاربين الكبار والطبقات الحاكمة ، وشمل ذلك بناء القصور وزخرفتها وتأثيثها من وحي تلك الصورة الفردوسية ،فلأول مرة في التأريخ تسكن السياسة العربية القصور المليئة بأنواع النساء الكواعب (المسبيات من بلدان لم يرها أغلبهم) والغلمان المرد المترفين و يرتدون الثياب المصنوعة من الأستبرق و الحرير ويأكلون أصناف من الطعام غريبة ويشربون البن والخمر بأكواب الذهب والفضة .

٣. الدخول في دائرة التأويل

تشترك اليوتيبيات والمدن الفاضلة والجمهوريات المثالية مع الجنة في الكثير من المشتركات ، وتتشابه بالدوافع التأسيسية والتي تكون عادة وفقا لمبدأ الوفرة والسلام واستبعاد الفقر والحرب . اما في الطريقة فان اليوتيبيا تنتهج الطريقة الفلسفية و تستعير الكثير من الطرق و المفاهيم ذات الأصول السياسية والتاريخية والأجتماعية ، في حين يوصف التفكير في الجنة بأنه ميتافيزيقيا وتكون طريقة معالجته للمشاكل الأجتماعية والأقتصادية والسياسية اقرب الى القفز فوق هذه الوقائع بطرق سحرية وعجائبية تنتمي للخيال اكثر من انتمائها للواقع.

المبحث الثالث :محددات تشكيل صورة الجنة

١. المحددات المقدسة

جهنم كنسق مضمر وتأسيس صورة الجنة

((وفي ذاته يستطيع الأنسان أن يجعل من جهنم جنة ومن الجنة جهنم ....(الفردوس المفقـــود) جون ملتون))

لقد تأسست صورة الجنة اعتمادا على فكرة او صورة جهنم ،بل ويذهب (جورج مينو) الى ان جهنم كانت وحدها هي العالم الآخر،ولم يرد أي ذكر للجنة أو النعيم بالمعنى المعـــروف عنهـــا لـــدى الديانات والحضارات ألاحقة.

لولا وجود جهنم بالفكر الديني لاختل النظام القيمي الكوني لجميع المخلوقات ،ولم تكن صورة الجنة بهذا الوضوح الذي ظهرت به في الميثيولوجيا والسرديات الدينية والموروثات الشعبية .فجهـــنم تحد من المعنى الغامض للجنة وتمنعه من الأفاضة والأرتداد للامعنى أمـــا كوســـمولوجيا فتـــدفعها للخروج من الهيولى ،من الفساد الى الكون ، ومن السقوط بالعمى chaotique والفوضى .وهي (قديمة قدم البشرية الواعية ومرتبطة بالحالة الانسانية التي تلقي فيها عذاباتها وأحقادها وتناقضاتها وعجزهـــا كما أن الجنة هي تسامي لآمالها ،لأفراحها وارادتها السعيدة ،وجهنم ،سواء كانت ،أو لم تكن ،مرتبطة بالعقاب والدينونة ،وسواء كانت أزلية ام عابرة ،فهي مرآة لفشل كل حضـــارة فـــي حـــل مشـــاكلها الاجتماعية وهي مصدر الغموض في الحالة الانسانية)[١١]

تشترك الجنة وجهنم في العمل كأحد أهم النواظم والموجهات القيميـــة فـــي كافـــة الأديـــان ،وتعضد الواحدة الأخرى ، حيث يتقاسمان العالم السماوي فيما بينهما ،وفي النهاية ليس هناك مكـــان اخر يستطيع الأنسان الذهاب اليه بعد الموت ، ووفقا لهذه الثنائية ينقسم الوجود كله ،ويغدو الجميع اما أخيار او أشرار،ولا يترك الذين لا يلتزمون أوالذين يلتزمون بالتعاليم الدينية لحالهم ،فليس أمامهم أي خيار ،فأما هذه او تلك و يعتقد الكثير من المؤمنين بفكرة الجنة أن هناك أناس سيدخلون الجنة قادمين من جهنم بعد ان قضوا فيها فترة غامضة وغير محددة وقاسية جدا بمثابة فترة اصلاحية او تطهيرية ، يتم خلالها اعادة تأهيلهم وتقويمهم من اجل ان يكونوا جديرين بدخول الجنة .

ودون ان ينتبه الخطاب الديني الى ان تعظيمه لمكانة وأهمية الجنة في مدونته ، أنه من جهـــة أخرى يهتم بجهنم ، وان كثرة انشغاله بها وبمروياتها والأحاديث التي تدور حولها يضـــمر انشـــغالا كبير بجهنم ، ما هو الا نوع من تقديم الهبات او رفع الأضاحي لكائن كلي ومخيف .

كلما حشد الفكر الديني المزيد من الخبرات والصفات الأيجابية لصورة الجنـــة فأننـــا ســـنرى انعكاسات لها في صورة جهنم ،كأن الناظر الى الجنة في المرآة لا يرى سوى جهنم أو النار ،وهذا ما

ظهر في جانب مهم من الفكر الديني وهو الصوفية والتي أخرجت مكنونات مهمة من أللاوعي العربي و عرفت بجرأة أصحابها في قول كل ما يشعرون به بصراحة منقطعة النظير في الثقافة العربية.

ان أغلب المرويات والنصوص والمدونات الفردوسية الدينية وغير الدينية تذكر الجنة بدلالة جهنم وجهنم بدلالة الجنة . يشير الشيخ حسين احمد الخشن ، الى المبالغة في آلية الثواب والعقاب ويورد بعض النماذج ومنها على سبيل المثال لا الحصر من كتاب الشيخ الصدوق (الأمالي) عن بعض الأعمال الطقوسية التي لا تكلف الأنسان فقدان حياته ومساواتها او معادلتها (بأجر مائة ألف شهيد ،ومائة ألف صديق ويدخل الف حاج ومعتمر و ومائة ألف مجاهد) ثم يورد المؤلف وتحت نفس الباب (المبالغة في الثواب والعقاب) مثالا آخر مؤخوذ من كتاب (بحار الأنوار) هو ان (المؤمن اذا كذب بغير عذر لعنه سبعون ألف ملك ، وخرج من قلبه نتن يبلغ العرش) .[١٢]

للمخيال الشعبي مجموعة من الآليات النفسية التي يعتمدها في طريقة ظهوره و أدارته لسلوكه فيما يخص موضوعة الجنة وجهنم ،فيحاول الأبقاء على الصفات الجيدة التي توفر له الرضى النفسي ويلقي بنقائضها الى جهنم ، وبذلك تعمل جهنم كآلية مضمرة في تشكيل وبناء صورة الجنة ،وتسهم بالنسبة للأنسان- بواسطة تلك الآليات النفسية – في تكوين ذاته العليا ،ذاته الملائكية التي يريد ان يراه بها الأب او الرب ،والتي يريد الحصول من ورائها على قبوله ورضاه . أما أناه المليئة بالذنوب فسيحملها او يسقطها على الشيطان الذي تصوره المرويات الأسلامية وهو يفنى في جهنم . ان البحث في الجذر اللغوي لمعنى كلمة الجنة في اللغة العربية يبين أن أصلها جاء من الأجنة أي الأنسان قبل ان يولد ،وتشترك مع كلمة المجنون أيضا بالحمل على المعنى الذي يشير الى الحجب والستر ،مادام الأول لم يولد بعد والأخر أحتجب عقله فهما لم يأكلا من شجرة المعرفة .

تشكل هذه الفكرة مع عدد أخر من الأفكار المشابهة لها ،جزء كبير من الستراتيجيات التي تم توظيفها من قبل الأديان لتحقيق الأهداف العليا للأديان والتي تشير جلها الى أخضاع الأنسان لعملية روحنة spiritualization مستمرة .

٢. المحددات الثقافية

في أهم مدونة عربية هي (ألف ليلة وليلة) يكشف عن نفسه هذا الانشغال المفرط والأحادي الجانب بالجسد والذي زاد من محاصرة الجسد ومراقبته بل ومعاقبته من قبل الخطاب المؤسسي الذي مازال الى الأن يعمل على تدعيم هذه المراقبة ،وهذا مالا تجد العلوم الأنسانية الصعوبة في الأعلان عنه او في ملاحقة آلياته وان طور هذا الخطاب من آلياته مع تقدم الزمن الا (ان طوق الجسد ووضعه بصورة دائمة تحت المراقبة وإن ظلت العدالة لاتزال تستهدف الجسد وإن اظحت اكثر نعومة في التعامل معه فلكي تحرمه من كل حقوقه ، الحرمان من الحياة ، من الوجود)[١٣]

تصر المخيلة الشعبية على الأحتفاظ بصورة او نموذج ايقوني يكاد ان يكون ثابت عن الجسد ، على العكس من الدراسات الحديثة التي أظهرت الطبيعة التفاعلية للجسد ولصورته ، إذ يظلان عرضة للتغير المستمر حسب مراحل النمو والحالة الوجدانية والوسط الأجتماعي والسياسي ، إلا ان المخيلة الشعبية في رسمها لتلك الصورة الثابتة للجسد والتي نكاد ان نشعر بفبركتها لكونها نابعة من مصادر مختلفة ،قديمة وحديثة ، دينية وسياسية وسايكولوجية وأجتماعية ، ونكاد ان نشعر ايضا بأنها صورة من غير شخصيتها ، محمولة على نفسها كصورة ، واقرب الى الكولاج منها الى انماط التصوير الأخرى .

اصرار المخيال الشعبي على المبالغة في اهمية العملية الجنسية ووصف المتعة الجسدية بأوصاف مبالغ بأتساعها دائما ، أدى الى تصادمها بالقدرات الذاتية للأنسان واستعداده البايلوجي والنفسي . وللخروج من هذا المأزق لجأت المخيلة –التي تهيمن عليها اصلا ضغوطات مرضية واستيهامية – الى حل سحري ، صنف حديثا ضمن الأدب العجائبي ، إذ قامت بتكبير حجم بعض الأجزاء من الجسد ،خاصة التي تتعلق بالعملية الجنسية ، دون ان تحسب حسابا للتشوهات التي تحدثها مثل هذه الأكراهات ،او التاثير على باقي اجزاء الجسد.

ان عمل جردة بسيطة لصورة الجسد وتمثلاته في الثقافة العربية لهي كافية لتوضيح خطورة ما يعيشه هذا الجسد الذي كاد ان يرث التركة الدينية الثقيلة بالكامل ،ويذهب ضحية لصوره المشوهة المخزونة في اللاوعي الجمعي .

٣. المحددات الحضارية :

النظرية الكسمولوجية العربية وهي وريثة نزعة أحيائية كبيرة وضاربة في القدم،وبالأعتماد على بعض الأحاديث والنصوص والمرويات الدينية الأسلامية من جهة وعلى التصورات والأفكار من الديانات الأخرى التي كانت معروفة انذاك وبالأعتماد على الفلسفات الأغريقية (خاصة الأفلاطونية المحدثة)،استطاعت ان تؤسس لها وجهة نظر في هذا الميدان ،وتعلن عن بداية نظرية خلق كونية خاصة بها . لقد أخذ جدل جديد يظهر حول قدم الجنة والنار، وحول النظر أليهما كأحد الكائنات أوالمخلوقات التي تملك نوع من الروح .

٤. المحددات السياسية

صورة الجنة والتوظيفات السياسية

لقد استفادت اغلب التنظيمات والحركات السياسية الإسلامية على مر العصور من الخطاب الفردوسي ، فلا يكاد بيان او مقال يصدر عن تلك التنظيمات يخلو من نص يشير من قريب او بعيد الى مفهوم الجنة وبطريقة أريد منها ان يعتقد المتلقي ان هذه التنظيمات سوف تحقق له وضع يمكنه

من العيش في بيئة فردوسية او ما هو اشبه بذلك ، وبشكل اخر ظهرت صورة الجنة من خلال مرورها وتفاعلها بفضاء أغلب الحركات التي وصفت في أدبيات تلك التنظيمات باليوتوبيا العربية . كذلك تجدر الأشارة الى ان مفهوم الجنة يكاد ان يكون المرجع الفكري والغطاء النظري للحركات و التنظيمات الأسلامية، ونقطة انطلاق لفضاء تلك اليوتوبيات وهو يتجه نحو اليدان السياسي و الأجتماعي ، لقد شهد التاريخ العربي وعلى مر العصور أختلاط أغلب حركاته من قريب او بعيد بالخطاب الفردوسي ، كذلك لا نكاد ان نرى مدينة مثالية او جمهورية فاضلة إلا وكانت هي المحاولة التطبيقية الأجتماعية والسياسية لذلك الخطاب و(انطلاقا من هذا العرض لمفهوم اليوتوبيا يمكننا النظر إليها على أنها تلك التصاميم والرؤى الفكرية ، التي تعتمد التأمل وسيلة للتخطيط . فهي نشاط فكري يرمي إلى اكتشاف ترسيمات جديدة تكون منذ البداية شكل مدينة أو جمهورية يحلو فيها العيش وتختلف جذريا عن تلك التي يعرفها الناس أو يحيونها فهي أشبة بالجنة الموعودة) [١٤]

٥. المحددات السايكولوجية والسوسيولوجية والانثربولوجية

الجنة ليست نفي مطلق للواقع بقدر ما هي تصعيد للجانب الحسي منه. او تحويل(بالمعنى الفرويدي) لما نعتقد انه نقص وحاجة في الواقع ، وكثيرا ما حمل مفهوم الجنة ملامح الخطاب السايكلوجي و السسيوثقافي الذي انتج فيه .

فالجنة والواقع قد يختلفان في النتائج ولكن لا يختلفان في المنطلقات او في طريقة التفكير.وليس بينهما أي قطيعة معرفية ،فما زال الخطاب الذي أنتج صورة الجنة هو نفسه قد تم أنتاجه في نفس الواقع والى وقتنا الحالي (ان البنية الأسطورية للواقع لاتزال كما كانت ،وان الأشخاص يتبدلون حتما مع الزمن ،لكنهم يقومون بالأدوار ذاتها) [١٥]

وفي العمارة وفن التصوير (لوحات وجدرانيات ومنمنمات والأواني المعدنية) الأسلاميين ظهرت النزعة الفردوسية بوضوح لا يشوبه الا القليل من العوائق التي تستلزمها المواد الأولية المستخدمة في هذه المهن (ولقد حافظ فن المنمنمات في البلاطات الاسلامية – من دون أن يفقد الصفة الرسمية التي كانت ملازمة للفن التصويري في المراحل الأولى للإسلام – على وظيفة الاحتفاء بالملك ، وهي أصلا أحدى وظائف هذا الفن ، كما تشهد على ذلك كلمات الإهداء الموجودة على المخطوطات الملكية، خصوصا على نسخ (كتاب الملوك) الشاهنامة ،ومصدرها المحترفات الملكية ، من اسطمبول الى البنغال . أضف أن الصورة نفسها قامت ، مرات عدة، بتأدية هذه الوظيفة . فتارة كانت الرسوم تمثل الأمير ملكا للكون ، أو تعالج موضوع الملكية العالمية بطريقة تلميحية – سليمان وملكة سبأ على العرش ، الأمير وهو يصطاد حمار الوحش والأسد ، مثل بهرام غور ،بطل الشاهنامة – وطورا ، تمنح قسمات الأمير لأبطال كتاب الملوك)[١٦]

يجب الأشارة الى انه لا يمكن الأحاطة بكل تمظهرات الخطاب الفردوسي ، أو الكيفية التي تمثله بها الذهن والمخيلة الأسلاميين المتأخرين ، وما تأثر بهم من الشعوب الأسلامية من غير العرب ،ولكن أطلالة على مشهد أي قصر من قصور السلاطين (حتى المتأخرين منهم هم ورثة مخيال ولد في قصور الخلفاء والأمراء العرب وكذلك شمل هذا قيام بعض من ملاك الأراضي ومن أصحاب الأقطاعيات) بعدها سنكتشف كيف يدير هذا الخطاب العلاقات داخل تلك القصور، خاصة الجزء المتعلق بالمرأة والذي يطلق عليه تسمية (الحريم) ، والتراتبية التي تنظيم تلك العلاقات . وأذا ما أضفنا البحث في الأصل اللغوي لهذه الكلمة (الحريم) نكتشف انها التجسيد الأرضي لجزء مهم من الجنة قد دار الحديث والنص عنه طويلا . [١٧]

لقد تم تأسيس الحريم بطريقة لا تترك مجالا للسؤال عما اذا كان قد نسيت شيئا من أوصاف القصر المذكور في الجنة ؟ فبلأضافة للأعداد الكبيرة من النساء اللواتي لا وظيفة لهن سوى خدمة سيد القصر جنسيا ، فلقد زود بطاقم من الذكور الذين تم محو هوياتهم بطريقة ممنهجة ،انهم بلأضافة الى كونهم من أسرى الحروب أو العبيد فقد قطعت علاقتهم بأصولهم عرقيا وجغرافيا ونفسيا بواسطة مجموعة من العمليات كأطلاق أسماء جديدة عليهم والقيام بأخصائهم وغالبا ما يتم ذلك قبل سن البلوغ ، السن التي يمتلك الأنسان فيها عقلا وشخصية، حسب وجهة النظر الدينية ، والتي يكون فيها قادرا على التمييز بين الصواب والخطأ دينيا . ان هذه الطريقة الطقوسية ، التطهرية ، ليس الهدف منها فقط أبعاد مكامن اللذة الجنسية ، و هي المواضع التي تشهد كثافة رمزية للهوية البايلوجية – التي تميز الأنسان كنوع – ولباقي الهويات الأجتماعية والنفسية والسياسية . ان أحد الأهدف المهمة لتلك العملية هو أقتطاع أو أستبعاد وجودي للذاكرة وأعادة ربطهم بأصولهم الأنثوية ، أو الروحية فيكونوا أقرب للملائكة بوصفهم (بنات الله) كما يقول العرب.

ومن جهة أخرى فأن هاتين العمليتان اللتان تتضمنان فعل قطع للأجزاء غير المرغوب فيها من أجل الدفع بهذه المخلوقات الملتبسة الهوية للصعود درجة في سلم الخلق الكوني وتحديدا بأتجاه الكائنات المعروفة لدينا بأسم الملائكة ، وجعلها تظهر بهيئة توحي بالصلة السرية مع الكائنات الفردوسية الغامضة المسماة (ولدان) او (غلمان) ، أو الكائنات السماوية الأخرى التي لا نعرف شيئا عنها سوى أنها مخلوقة من طبيعة روحية .

هذا ونجد من الضرورة ان نثبت هنا اننا لا يمكن لنا التوسع في تقصي العديد من تمظهرات الخطاب الفردوسي ليس بسبب أتساعها بمثل هذه الأماكن (قصور الملوك والقادة والسلاطين) بل لأن هذه الأماكن أسست أصلا وفقا لرؤى تضع الجنة نصب أعينها ، بدئا بنوعية الأقمشة والحلي و الأفرشة وتصميم أحواض الأستحمام و الحدائق ....

تشير الييف كروتييه الى ان كلمة الحريم مشتقة من كلمة حرم العربية التي تعني حرام ،محمي ، أو محرم ...لكن الكلمة في استخدامها الدنيوي تشير الى المعزول : الجزء المحمي في الدار الذي تعيش فيه النسوة والأطفال والخدم عيشة الحد الأقصى من العزل والسرية . وتنطبق كلمة حريم أيضا على النسوة أنفسهن وقد تشير الى الزوجة . وأخيرا ، الحريم هو بيت السعادة ، المعنى الأقل تدينا والذي يقر بحقوق السيد المطلقة في ممارسة الجنس ، انه المكان الذي تفصل فيه النساء ويعزلن والمحرم على الجميع باستثناء الرجل الذي يتحكم بحياتهن . انه مكان في بيت ثري نبيل يحرسه العبيد المخصيون ، ويحتفظ فيه سيد العزبة بنسائه وجواريه بعد ان توافرت مجموعة الأليات التي أسست الحريم بأعتباره نتاج مجموعة من التقاليد ، وفي عدد من المواضع تكشف الأصول الفردوسية لهذا الكيان ، الذي يوحي بمبدأ الفصل بين الأشياء ،(وفقا لثنائية الدنس والمقدس المصعدة ، التي تقسم الواقع الى مقولات شمولية على نحو متبادل تتحكم بها نواظم صارمة ....النساء يرمزن للرغبة الجنسية ويرمز الرجال للعقل . وأن حواء هي المغوية ، وقد نزع النظام الأبوي عبر التاريخ الى اعتبار كل النساء مثلها)[١٨]

وعلى العكس من هذا فأن مفهوم الجنة لم يكن لفعاليته حدود في السنوات الأولى من الدعوة الأسلامية قبل قيام دولة الرسول او بعدها ، حيث تم اعتماد هذا المفهوم كموجه وحافز ونموذج محاكاة ، ونظرية عمل ، فهذه السنوات هي التي شهدت التبلور الحقيقي لمفهوم وصورة الجنة .

٦. الأدب الغرائبي بوصفه مصدرا من مصادر المخيال الشعبي

تمثل الجنة القطيعة والابتعاد النهائي عن الألم ، بواسطة تخيل مكان بعيد لا يمكن الوصول اليه الا بأتباع تعليمات صارمة و بطريقة تختلف حسب الطوئف والمجتمعات ،وبعد المرور بصعوبات ومشاق واهوال تزخر بها المرويات الشعبية والمدونات الادبية الأخرى ،ويعتمد اغلبها على طريقة السرد العجائبية .

ويبلغ الانسان الجنة عادتا بواسطة نوع من السفر الجوي لأن مقرها السماء كما تخيلتها جميع المرويات والنصوص الدينية ، وحسب نظرية الخلق الكوني في الفلسفة العربية ان الانسان يعود برحلة عكسية من اجل اللألتحام والتماهي والذوبان بذاته الأولية او العليا او بذاته الالهية التي كانت له قبل الخطيئة، ليجد مكانه المخصص له من اجل متابعة مشاغله الأرضية وسد حاجاته الدنيوية في قصركبير تحيط به الأشجار دائمة الثمر وأنهار اللبن والعسل ، وفي داخل القصر توجد النساء من زوجات وكائنات ذات طبيعة انثوية جمالية تسمى(الحور عين) لتؤمن الحاجة الجنسية لرجل الجنة ، وكذالك يوجد عدد كبير ايضا من الخدم يشكل الأطفال رائعي الجمال جزءا منهم.لذا فقد استفادة أغلب المرويات والنصوص العربية العجائبية والمخيال الشعبي– بأعتباره الوريث الشرعي لتلك المرويات –

من صورة الجنة بوصفها مستقبلة و مصدرة لها ، ومادة تمنح المروية وخاصة المروية الشفاهية عناصر تشويق وأبهار .

٧. الخطاب الفردوسي بين تأسيس مخيال جديد للجسد وأستعادة الأليات القديمة

تتشكل صورة الجنة في المخيال الشعبي كمجاز مركب ، يتكون من مجموعة من الوحدات المجازية الأصغر التي تم تزويده بها من مجموعة من المصادر تشكل المدونة الدينية أهمها ، وكثيرا ما تلتبس تلك الصورة أو تختفي ملامحها في ذهن البعض ،ولكن المكونات الجسدية تكاد ان تكون واضحة وثابتة في كل المستويات ، فبالاضافة الى مستلزمات العيش الاخرى من مسكن ومأكل وملبس ومشرب فأن هذا المخيال يحتفظ للذة الجنسية بدور كبير وأهمية استثنائية. كذلك لا يخفي هذا المخيال الأشارة الى انه أعتمد على ما عرف في الأدبيات الدينية ب (المعاد الجسماني) أو (جسمانية المعاد) كقاعدة نظرية لفضائاته . ان هذه المواضيع والأفكار من الأهمية بالنسبة للأديان قد تفوق أهتمام المخيال الشعبي ازائها فلم (تكن هناك مباحث وموضوعات دينية تساوي ، في مجملها، عين الدين في ذات أنبعاثه الآلهي عند الانسان ، ولعلنا لا نجانب الصواب لو قلنا ان مبحثي (المبدا و المعاد) اللذان جمعا ، في اطار المعالجات الاسلامية ، ضمن علم واحد يساويان ، أو يكادا ، النظرة الكلية للدين نحو الوجود : مصدرا وأصلا ومسارا و حياة ومصيرا .... بل هما يشكلان خلفية النظرة الدينية الى الانسان ، في سياقه الوجودي ،وبعده الروحي ، والنفسي والجسدي) [١٩]

أن المخيال الشعبي يحتفظ بصورة جنسية عن الجنة ، يحتل جسد المرأة حجر الزاوية فيها بصوره الأشهارية والاستعراضية ، والتي كثيرا ما تشبه موضوع الرغبة في الأعلانات الدعائية ، بعد ان تم الفصل بين المرأة وبين جسدها ، الذي هو ليس ملك لها بل للخطاب السائد مهما كان نوع سلطته ، هذا الخطاب الذي دون فوقه فصول طويلة من سيرة ساديته ونرجسية ذاته ولوائح مؤسساته ،وجعل منه حيز يسقط عليه مخرجات لاوعيه النفسي والأجتماعي والسياسي .

هذه الصورة غذاها في ذلك المخيال العدد الهائل من النصوص والمرويات والحكايات والأخبار والطرائف بمختلف مصادرها .ولقد حرص العقل العربي على انتاج هذا الكم واعادة تدويره في كل عصر، بما يخدم أغراضه ويزيد من سطوة سلطته. ان هذا الكم الهائل ليس دليل اهتمام بالضرورة ،ولم يكن الهدف منه تعزيز مكانة الجسد لذاته ، وإلا لما تم تقسيمه الى جسد رجل وجسد امرأة، والنظر اليه بمنظار الثنائية المطلقة المركز–الهامش ، الاعلى–الادنى، الطاهر – المدنس ، وغيرها من الثنائيات التي تكشف عن العلاقة غير المتكافئة بين طرفين متقابلين يخضع أحدهما للآخر، والتي شملت حتى الأفكار والنصوص التي تناقش مصير المرأة بعد الموت ، (لقد طلب من رشيد رضا أن يفتي بشأن وضع المرأة في الجنة . ورغم الاعتقاد ، كما رأينا ، بأن المرأة تستطيع دخول الجنة

بالأعمال الصالحة ، يبدو أن الملذات الجنسية السماوية بقيت لا تتوافر الا للرجل من خلال خدمات حوريات عذارى . والسؤال الذي طرح على رضا هو هذه الأفضلية للرجل وكيف ينبغي أن تتمتع المرأة في هذا الجانب من الجنة ؟ وكان جوابه أن كل امرأة تدخل الجنة يجب أن يكون لها زوج ، وانه ليس هناك سببا للافتراض بأن الحوريات كائنات خاصة لم تخلق الا في الجنة ، بل انه لمن الممكن تماما أن يعاد خلق الزوجات الدنيويات جدا حوريات) [٢٠]

الصور المتراكمة في المخيال الشعبي سواء كانت عن الجنة او عن الجسد في الجنة فأن اهتمامه ظل أهتمام نفعي، سلعي ، اشهاري ،يعتمد في جوهره فرض صورة على الجسد انتجت خارجه ،في المؤسسة الدينية اوالسياسية او غيرها من المؤسسات ، ومن ثم تصديرها كصورة نمطية ، وكنسخة وحيدة مرغوب فيها ، وجعلها طريقة العيش الوحيدة للجسد ، اذ لا يمكن له ان يظهر او يتحدث الا بواسطتها ، ولا يمكن قبوله الا كجسد صامت، خاضع،طيع،يعمل على تحقيق رغبات مختلفة ليس بينها رغبته.

٨. الشجره تعبير نباتي للخلود

الشجره في الجنه لا تحمل أي بعد روحيا ظاهر ولا تملك قوى سحرية مقدسة، فشجرة الجنه شجرة اقرب الى شجرة هذا العالم منها الى الاشجار الكونية التي تزخر بها كافة الاديان تقريبا ،لان الشجرة المقدسة لها قصة في كل ديانة قديمه وفي المعتقدات والفنون الشعبية في العالم كله وفي ايكونوغرافيا الحظارات كلها[٢١] . ولم تكن شجرة الجنة شجرة (معرفة) او شجرة (حكمة) بل شجره للاكل كذلك لم تكن مسكنا للالهة.

الشجرة مثل كافة العناصر الفردوسية الاخرى والتي تم تفريغها من محتواها الرمزي والروحي والابقاء على محتواها المادي والأستعمالي ، وهذا ما حدث مع أغلب العناصر والمكونات الأخرى كالمرأة والطائر والنهر ،التي ليس لها أي وظيفة روحيه مقدسة كالتي نسبتها لها الديانات القديمه .

الاسلام كباقي الديانات استعار الشجره ليرمز بها الى الكون وله الكثير من الاشجار المقدسة وهي حاظره في الكثير من الاماكن التي تذكرها المرويات والاخبار ليس بينها الجنة سوى مروية (سورة المنتهي) التي قرب العرش وقد تسربت الى الاسلام مع الكثيرمن معتقدات الديانات والشعوب والحضارات القديمة (كالشجرة المقدسة والانهار المقدسة والمنابع والجبال...المقدسة)ولكن تم توزيعها كعناصر في صور الجنة .

شجرة الجنة لا يبذل الانسان أي جهد لبلوغه ثمرها لا مقطوع او ممنوع واحيانا يوجد ملائكة مخصصون لاحضاره.

اما الاشجار الكوسمولوجية(الخلود .المعرفه.الحياة) فهي دائما توجد في اماكن مركزة في اعالي السماء و طرف العالم بعيدة لا يسمح المساس بها الا من قبل ابطال تلك الميثيولوجيات نفسها والوصول اليها يكون بعد رحلات مخيفة مليئة بالاهوال رحلات لها ابعاد تدخل في السيرة الرمزية لتلك الميثيولوجيا او لبعض الاديان حيث تقف كائنات أسطورية لحراستها تملك قدرات قتالية جبارة لمنع اليد التي تمتد الى تلك الاشجار.

ولربما للتخفيف من سلطة الفراغ الكوني اللامتناهي والذي عادة ما كان حقلا وفضاء لولادة مخاوف البشر ،فقد جاء الوصف الاسلامي للجنة (عرضها السماوات والارض) فرغبة النص تبدو واضحة في ترويض الشساعة وأنسنة المجهول والبعيد والغامض وجعله بيئة صالحة لزراعة الاشجار وشق الانهار.

٩. العمارة الفردوسية

ارتبطت صورة القصر في الأدبيات والموروثات العربية كثيرا بمحاولة بلوغ الخلود لمن ملك الكثير من الاشياء ولم يبق له سوى الحفاظ على هذه المكتسبات وهو يعلم ان ذلك لا يتم الا بلمسة سحرية اخيرة تنجز ما بذله وما كلفه كثيرا وما اجتهد في بنائه و رسمه ،لن تاتي الا من الجانب الاخر الذي وحده يملك سر الخلود. فالخلود امتياز ألاهي حصرا.

بعض الانماط والملامح البشرية والاشخاص وادوارهم ووضعياتهم تظل تنتقل من تصور فردوسي الى اخر كبورتريهات نمطية، بحيث لا يجري عليها سوى بعض التعديلات الطفيفة التي تلائم طبيعة السياق الثقافي الذي تظهر فيه.

النصوص ظلت وفية للنزعة المجازية ولعناصرها التصويرية وهذا ما يفسر السهولة التي وجدها المعماريين والرواة على حدا سواء في تصويرهم للجنة .

لقد صورت الكثير من المشاهد الفردوسية بالاسلوب الفطري او الشعبي وهذا ما يفسر المغالات بالتزويق واعتماد الالوان اكثر من الاهتمام بالتفاصيل الانسانية .

نتائج البحث

ختاما يعرض الباحث ما توصل اليه من نتائج أهمها :

١. وجود خطاب فردوسي إسلامي يندرج تحته الكثير من الظواهر السلوكية والمرويات المتوارثة واللوحات الفنية والحرف الفنية الشعبية.

٢. اختلاف آليات تلقي نص الجنة في المخيال الشعبي بين الجماعة الإسلامية والتي أفرزت صور متباينة عن الجنة .

٣. ملاحظة الباحث إن جهنم هي احد الأنساق المضمرة التي تأسس عليها مفهوم الجنة كثنائية ضدية .

٤. محاكاة صورة الجنة عند الخلفاء والسلاطين واستلهام نموذج العمارة الفردوسي في بناء .

٥. واذا ما حاولنا مقاربة مثيولوجية للموضوع ،فستظهر لنا ان جهنم احد منتجات الديانة الأبوية الذكورية ،على العكس من الجنة التي سيظهر انتمائها الواضح لنسق الديانات الأمومية .

المصادر

القرآن الكريم

١. اسطورة الخلق العربية ، الدكتور عبد الله العذري ، دار الوراق لندن ٢٠٠٨

٢. أنثربولوجيات الاسلام ، سامي زبيدة ، دار الساقي ١٩٩٧

٣. تاريخ جهنم –جورج بنو–تعريب انطوان ا.الهاشم منشورات عويدات –طبعة اولى ١٩٩٦

٤. التعبير البياني ، شفيع السيد ،– رؤية بلاغية نقدية

٥. تطور الشعر العربي الحديث في العراق اتجاهات الرؤيا وجمالات النسيج ، علي عباس علوان

٦. دوائر الخوف ، نصر حامد ابوزيد

٧. الشعر والتجربة، ارشيبالد مكليش، ترجمة سلمى الخضراء الجيوسي، مراجعة توفيق صايغ، بيروت، ١٩٦٣

٨. الصورة الأدبية، الدكتور مصطفى ناصف، دار الأندلس، الطبعة الثالثة، بيروت،

٩. الصورة الشعرية ،سي . دي لويس

١٠. الطوباوية والتراث–محمد علي الكبسي دار بو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع–تونس

١١. عالم الحريم ،أليف كروتييه ، ت علي خليل– دار الكلمة –سوريا ٢٠٠٥

١٢. مجلة عالم الفكر العدد ٤ المجلد ٣٧ ابريل–يونيو ٢٠٠٩.

١٣. مجلة الفكر العربي عدد ٢٢ ، ، معهد الأنماء ١٩٨١

١٤. مجلة المحجة ، معهد المعارف الحكمية للدراسات الدينية والفلسفية – لبنان . عدد ٢٢

١٥. المخيال العربي الإسلامي، مالك شبل،الناشر: باريس: المنشورات الجامعية الفرنسية بباريس، ١٩٩٣

١٦. الكلمة والصورة في الأسلام ، مليكان شرفاني ت عيسى مخلوف دار بدايات ٢٠٠٨

١٧. النفس المبتورة ، شاغان دار الساقي ١٩٩١

١٨. هل الجنة للمسلمين وحدهم ، حسين احمد الخشن المركز الاسلامي الثقافي ٢٠٠١

الهوامش

[١] التعبير البياني ، شفيع السيد ،– رؤية بلاغية نقدية : ١٣٩ .

[٢] سورة الانفطار الآية ٧–٨ .

[٣] سورة غافر الآية ٦٤

[٤] الصورة الشعرية ،سي . دي لويس ،: ٢٣

[٥] تطور الشعر العربي الحديث في العراق اتجاهات الرؤيا وجمالات النسيج ، علي عباس علوان: ص٤١ .

[٦] الشعر والتجربة، ارشيبالد مكليش، ترجمة سلمى الخضراء الجيوسي، مراجعة توفيق صايغ، بيروت، ١٩٦٣.ص٦٧

[٧] الصورة الأدبية، الدكتور مصطفى ناصف، دار الأندلس، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٨٣:ص٨

[٨] المخيال العربي الإسلامي، مالك شبل،الناشر: باريس: المنشورات الجامعية الفرنسية بباريس، ١٩٩٣ ص٧-٩

[٩] اسطورة الخلق العربية ، الدكتور عبد الله العذري ، دار الوراق لندن ٢٠٠٨ ، ص١٦

[١٠] دوائر الخوف ، نصر حامد ابوزيد _ص ٢٩

[١١] تاريخ جهنم –جورج بنو–تعريب انطوان ا.الهاشم منشورات عويدات –طبعة اولى ١٩٩٦ص٩

[١٢] هل الجنة للمسلمين وحدهم ، حسين احمد الخشن في كتابه : ص ٤٥

[١٣] مجلة عالم الفكر العدد ٤ المجلد ٣٧ ابريل–يونيو ٢٠٠٩.

[١٤] الطوباوية والتراث–محمد علي الكبسي دار بو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع–تونس ص ١٩

[١٥] شاغان –النفس المبتورة ص ١٦

[١٦] مليكان شرفاني (الكلمة والصورة في الأسلام) ت عيسى مخلوف دار بدايات ٢٠٠٨: ص ٢٢

[١٧] (أليف كروتييه ص٢١– عالم الحريم – ت علي خليل– دار الكلمة –سوريا ٢٠٠٥)

[١٨] عالم الحريم ، المصدر السابق ، ص٢٢

[١٩] مجلة المحجة ، معهد المعارف الحكمية للدراسات الدينية والفلسفية – لبنان . عدد ٢٢ ص ١٢

[٢٠] أنظر سامي زبيدة (أنثربولوجيات الاسلام) ص ٤٣ دار الساقي ١٩٩٧مأخوذ من (رضا ،١٩٧٠ ،الفتاوي رقم ١٩٦ ، ص ٥١٢)

[٢١] أنظر جان صدقة – طقوس ورموز – دار رياض الريس للكتب والنشر– ص٨٦